بيرتــون ل. مــاك

الإنجيل المفقود

كتاب «لك» والأصول المسيحية



ترجمة: محمد الجورا

الفهرس

* الإنجيل المفقود،
كتاب «ك» والأصول المسيحية
* بيرتون ل. ماك
* الطبعة الأولى 2007

* دار الكلمة للنشر والتوزيع
سورية، دمشق، ص.ب: 2229
هاتف/فا: 2126326، 2136492

* دار الجندي للنشر والتوزيع
سورية - دمشق
هاتف:3317019ص.ب:33418

* توزيع: دار الحصاد
سورية، دمشق، ص.ب: 4490
هاتف/فا: 2126326، 2136492

* رقم الموافقة على الطباعة 3186،
تاريخ الموافقة :2005/11/17

بيرتون ل. ماك

الإنجيل المفقود،

كتاب «ك» والأصول المسيحية

ترجمة: محمد الجورا

تمهيد

التحدي

ذات يوم ـ أي قبل أن يكون هناك أناجيل من النوع المألوف لدى قراء العهد القديم ـ كَتَبَ أتباع يسوع الأوائل كتاباً من نوع آخر. كان كتابهم ذاك يضم تعاليمه فقط بدلاً من أن يروي قصة درامية حول حياة يسوع. لقد عاشوا وهذه التعاليم ترنّ في آذانهم، واعتبروا يسوع مؤسساً لحركتهم. لكن تركيزهم لم يكن على شخص يسوع أو على حياته ومصيره، لأنهم كانوا مستغرقين بالبرنامج الاجتماعي الذي تدعو إليه التعاليم، لم يكن كتابهم إنجيلاً من النوع المسيحي، خاصة عرضه السردي لحياة يسوع على أنه المسيح، بل كان ـ بالأحرى ـ إنجيلاً لأقوال يسوع: أي إنجيل أقوال. لقد رَتَّبَ أتباعه الأوائل هذه الأقوال بطريقة كانت تقدم إرشاداً من أجل العيش إبداعياً في فترة زمنية كانت شديدة الإرباك. وقد خدمهم كتابهم هذا جيداً ككتيب إرشاد وتوجيه طوال معظم القرن المسيحي الأول.

لكن هذا الكتاب فُقِدَ. لعلَّ الظروف تغيرت، أو أن الناس تغيروا، أو أن ذكرياتهم ومخيلاتهم عن يسوع تغيرت. على أية حال، لقد ضاع الكتاب في طيات التاريخ، في مكان ما في أواخر القرن الأول، عندما بدأ البعض بكتابة قصص حول يسوع، فأصبحت الشكل الأكثر شعبية لوثيقة إعلان مبادئ الحلقات المسيحية الأولى.

يشكل هذا فارقاً: هل يتم تذكر مؤسس حركة من أجل تعاليمه، أم يتم تذكره من أجل أفعاله ومصيره؟ لقد اعتبر أتباع يسوع الأوائل أن أهمية يسوع كمؤسس لحركتهم مرتبطة مباشرة بالأهمية التي أناطوها بهذه التعاليم. فكمية الإرشادات التي كان الناس يتداولونها باسمه، أمر أكثر أهمية. فما الذي كانت تدعو إليه هذه التعاليم من خلال أفكار ومواقف وسلوك، وما الفرق الذي تحدثه في حياة الذين أخذوها جدياً. لكن بينما كانت الحركة اليسوعية تتسع، بدأت جماعات ـ في أماكن وظروف مختلفة ـ بالتفكير بالحياة التي لا بُدّ أن يسوع قد عاشها. فبدأ البعض يفكر به باعتباره حكيماً، بينما اعتبره آخرون نبياً، أو ساحراً ـ حتى ـ ظهر كي يخلص العالم من شروره. هذا التحول من الاهتمام بتعاليم يسوع إلى أسئلة تدور حول شخص يسوع، وسلطته، ودوره الاجتماعي أنتجت في نهاية المطاف أساطير متباينة.

الميثولوجيا المألوفة لدى المسيحيين في أيامنا هذه نشأت بين جماعات استقرت في شمالي سوريا وآسيا الصغرى. فهناك تمّ تفسير موت يسوع كشهادة، ثم زُيّنتْ هذه الشهادة بتفاصيل حدثِ صلبِ وقيامة إعجازيين. لقد سارت هذه الأسطورة على غرار أساطير هيلنستية تروي مصير كائن إلهي (أو ابن الله). ولم يمضِ زمن طويل حتى تحولت هذه الحشود إلى عبادة يسوع القائم من بين الأموات، أو المتحول الذي أشاروا إليه بالمسيح، أو الرب، وابن الله أيضاً. لقد مر أتباع المسيح الذين جرى توثيقهم بأقصى درجات الوضوح في رسائل بولص ـ في خمسينات القرن الأول ـ بانحراف مذهل في توجههم: من تعاليم يسوع إلى روح المسيح الذي مات وقام من بين الأموات. هذه الأسطورة هي التي جعلت الأناجيل السردية أمراً ممكناً في نهاية المطاف.

بدأت ـ الأناجيل السردية بالظهور في القسم الأخير من القرن الأول. كُتب إنجيل مرقس في السبعينات، وإنجيل متّى في الثمانينات، وإنجيل يوحنا في التسعينات، وأعمال لوقا في مطلع القرن الثاني. دمجت هذه الأناجيل ملامح من أسطورة الشهيد من عبادة المسيح مع تراثات حول يسوع في قصة

مآثره ومصيره. ووصلت هذه الأناجيل إلى الذروة في عرضٍ لمحاكمته، وصلبه، وقيامته من بين الموتى. لقد اتبعت حبكة كان مرقس أول من صاغها خلال فترة السبعينات في بداية الحرب بين الرومان واليهود. هذه الحبكة قلّصتْ الزمن الفاصل بين أحداث حياة يسوع وبين تدمير هيكل أورشليم أثناء الحرب. لقد أنجز مرقس هذه الحبكة من خلال إقامة روابط بين مجموعتين من الأحداث (موت يسوع، وتدمير الهيكل) التي لا يمكن تخيلها بعد الحرب. فإنجيل مرقس يبدو أنه أقدم عرض مُدون مكتمل وفق هذه المسارات، لكن بعد أن تمّ تصوره، ما لبثت جميع الأناجيل السردية أن استخدمت هذه الحبكة الأساسية ذاتها.

وفقاً للخط القصصي للأناجيل السردية كتب على يسوع الصراع مع حكام العالم لأنه ظهر في العالم بصفته ابن الله. ولم يلبث أن تصاعد هذا الصراع حتى بلغ ذروته في صلب يسوع على أنه المسيح. لكن هذا النزاع يُحسم أخيراً عندما ظهر كابن الله القائم في نهاية الزمن يحاكم العالم، وليرسي نظاماً اجتماعياً جديداً من خلال الملكوت. ففي هذا الوقت عُدّتْ قيامة يسوع وتدمير الهيكل أنهما يؤسسان حقيقة خطة الله العظيمة.

لم يكن باستطاعة أتباع يسوع الأوائل أن يتخيلوا أن أسطورة كهذه تمدهم في محاولاتهم للعيش وفق تعاليمه، ولم تكن بهم حاجة لأن يفعلوا ذلك. فإنجيل أقواله الذي بين أيديهم كان كافياً تماماً للحركة اليسوعية كما فهموها. وحتى بعد أن أصبحت الأناجيل السردية سائدة، كان إنجيل الأقوال ما يزال مُعْتَمَداً، وما يزال يُنسخُ ويُقرأ باهتمام في حلقات كانت تزدادا اتساعاً، وكان متوفراً في نسخٍ فيها تباين قليل لدى مجموعات عديدة استمرت بالتشكل ضمن الحركة اليسوعية. لكن ما لبثت الأناجيل السردية أن أصبحت هي السائدة بصفتها التصوير المفضل لدى المسيحيين، وفُقدَ إنجيل الأقوال من الذاكرة التاريخية للكنيسة المسيحية.

لولا قيام اثنين من مؤلفي الأناجيل السردية بتضمين أجزاء لا بأس بها من

إنجيل الأقوال في قصصها عن حياة يسوع لكان إنجيل الأقوال ـ لدى أتباع يسوع الأوائل ـ قد اختفى دون أي أثر في المراحل الانتقالية التي كانت تحدث. لقد كان لدى متَّى ولوقا نسخة من إنجيل الأقوال، والمادة التي نسخها كل منهما من إنجيلي الأقوال متداخلة إلى حد كبير. فهذه المصادفة هي التي جعلت استعادة الكتاب أمراً ممكناً في العصور الحديثة، مع أن الأقوال تبدو الآن مثل بيانات ابن الله بدلاً من أن تكون تعاليم يسوع.

لم يتخيل أي مؤرخ حديث أن إنجيل الأقوال كان موجوداً فيما مضى، ولذلك لم يمض أحد للبحث عنه. لقد اكتشفه العلماء دون أن يدركوا ما يفعلون أثناء تمحيصهم لأناجيل العهد الجديد، وأخذوا يتساءلون أيها كُتبَ أولاً. فعند وضعهم الأناجيل بجانب بعضها لإجراء مقارنة بينها، لاحظوا نوعين من التشابه بينها. الأول هو أن الخط القصصي في إنجيلي متَّى ولوقا كان يتفق فقط عندما كان يتبع إنجيل مرقس. هذا الاكتشاف يعني أن إنجيل مرقس هو الإنجيل السردي الأول، وهو المصدر للحبكة التي استخدمها كل من متَّى ولوقا. والشبه الثاني لا يقل أهمية أيضاً: لقد ضَمَّنَ متَّى ولوقا كمية كبيرة من مادة الأقوال غير موجودة في إنجيل مرقس، ومعظم هذه المادة كان متطابقاً. هذا التشابه يعني أن متَّى ولوقا قد استخدما وثيقة مكتوبة ثانية بالإضافة إلى استخدامهما إنجيل مرقس. لقد أسمى العلماء هذه الوثيقة «Q ك» اختصاراً لكلمة Quelle الألمانية التي تعني «مصدر»، لأنهم اعتبروها ـ في البداية ـ المصدر المشترك للأقوال في إنجيلي متَّى ولوقا. لكن ما إن تمّ اعتبار «ك» مصدراً لهذين الإنجيلين حتى أصبح بالإمكان دراستها وحدها. وبذلك خرج كتاب أتباع يسوع الأوائل إلى النور بعد أن ظل مفقوداً طوال /١٨٠٠/ عام. وتمشياً مع ما جرى عليه الدارسون سأسمي هذا الإنجيل المفقود «ك» لأن ليس له اسم مناسب آخر.

بالإمكان أن نلمح أتباع يسوع الأوائل من خلال قراءة متأنية لـ «ك». نستطيع رؤيتهم على الطريق، وفي السوق، وفي منازلهم. كما نستطيع أن

نسمعهم وهم يتحدثون عن السلوك اللائق، وأن نتحسس روح الحركة ومواقفهم تجاه العالم. بالإمكان أن نتتبع إحساساً بالهدف من خلال تغيرات ثابتة في مواقفهم من جماعات أخرى طوال جيلين أو ثلاثة من تجريبية اجتماعية اتسمت بالعنف. إن هذه صورة حية، وهي تامة بما يكفي لنعيد بناء التاريخ الذي حدث بين زمن يسوع وظهور الأناجيل السردية، هذه الفترة التي أعطت لاحقاً الكنيسة المسيحية عرضها الرسمي للبدايات المسيحية.

الأمر المهم حول أناس «ك» هو أنهم لم يكونوا مسيحيين، إنهم لم يعتبروا يسوع «مسيا» أو المسيح، ولم يأخذوا تعاليمه على أنها حكم خلاصي على اليهودية. إنهم لم يعدوا موته مقدساً أو حدثاً مأساوياً ولم يتخيلوا حتى أنه قام من بين الأموات كي يسيطر على عالم متغير. بدلاً من ذلك، عدوه معلماً جعلت تعاليمه العيش بحيوية في أزمنة مضطربة أمراً ممكناً. ولذلك لم يجتمعوا كي يتعبدوا باسمه، أو يمجدوه كإله، أو ليحتفوا بذكراه في تراتيل وصلوات وطقوس. إنهم لم يشكلوا عبادة المسيح كتلك العبادة التي انبثقت وسط التجمعات المسيحية المألوفة لدى قراءة رسائل بولص. أناس «ك» كانوا أناس يسوع، وليسوا مسيحيين.

يقلق هذا الاكتشاف الصورة التقليدية لأصول المسيحية. فالتصور المعروف يقوم على تصوير يسوع في الأناجيل السردية على أنه هو يسوع الذي ظهر بوصفه المسيا اليهودي كي يصلح دين اليهودية. فتحدى تعاليم الكتبة والفريسيين، ودعا الناس إلى التوبة، وأمر حوارييه أن يكونوا قادة في مملكة الله التي على وشك أن تُدشن. وتصوره الأناجيل سائراً إلى أورشليم، طهّرَ الهيكل، وأعلن تدميره، وتصدى للسلطات اليهودية هناك، وصُلبَ، تمشياً مع صراع كوني، ورؤيوية بين اليهود وخطة الله من أجل ملكوت. ففي البداية، شعر تلاميذ يسوع بالإرباك عند موته، لكنهم تجمعوا من جديد عندما ظهر لهم على أنه الرب القائم وابن الله. وبعد ذلك، شكلوا الكنيسة الأولى في أورشليم، وبدؤوا بعثتين تبشيريتين كبيرتين، إحداهما إلى اليهود، والأخرى إلى الأغيار. لقد فعلوا ذلك انطلاقاً من قناعتهم أن معجزة القيامة من الموت

كانت دليلاً على أن إعلان يسوع كان صحيحاً، وأن الحساب النهائي لله على العالم قد بدأ.

لا يعكس إنجيل الأقوال أيّاً من هذه الأمور. ففي «ك» ليس ثمة إشارة إلى مجموعة منتقاة من التلاميذ، وليس فيه برنامج لإصلاح دين أو سياسة اليهود، ولا مواجهة درامية مع السلطات في أورشليم، ولا استشهاد من أجل القضية. لكننا نجد شهادة ذات أهمية خلاصية من شرور العالم. ولا يرد ذكر لكنيسة أولى في أورشليم. الناس في «ك»، وبكل بساطة، لم يفهموا أن هدفهم هو تبشير إلى اليهود، أو إلى الأغيار من أجل تلك المسألة. إنهم لم يخرجوا كي يغيروا العالم، أو ليبدؤوا ديناً جديداً.

التحدي الذي يمثله «ك» للمفهوم المسيحي الشعبي المتعلق بالأصول المسيحية أمر واضح تماماً. فإذا كانت النظرة التقليدية للبدايات المسيحية صحيحة، فكيف يتسنى لنا أن نفهم هؤلاء الأتباع الأوائل ليسوع؟ هل يا ترى أخفقوا في فهم رسالته؟ هل كانوا غائبين عندما حدث ما هو غير متوقع؟ هل استمروا في جهل مفهوم الخلاص في الإنجيل المسيحي أو إنكار؟ لو أن أتباع يسوع الأوائل فهموا الهدف من حركتهم كما يحدده «ك» فكيف لنا أن نفسر ظهور عبادة المسيح، والأساطير الخيالية للأناجيل السردية، والتأسيس النهائي للكنيسة والدين المسيحي؟ إن «ك» يجبرنا على إعادة النظر في مسألة الأصول المسيحية أكثر مما فعلت أية وثيقة أخرى من العصور الأولى.

موضوع هذا الكتاب هو الإنجيل المفقود والتحدي الذي يمثله للصورة التقليدية عن الأصول المسيحية. ففي الجزء الأول نعرض قصة اكتشاف «ك»، ونقدم إعادة بناء في خطوط عريضة أولية. إننا لا نقدم التاريخ الكامل لتلاعبات العلماء التي حصلت لأن ذلك يتطلب إعادة مطولة لجدال تفصيلي مستمد من أعمالهم. لكن القارئ يود التعرف على الأحداث الرئيسية في بحث هؤلاء العلماء عن الإنجيل الأقدم، ولماذا تطلب الأمر مدة طويلة حتى تعرفوا على «ك» بوصفة إنجيل الأقوال الخاصة بالحركات اليسوعية الأولى، وماذا يصنعون من نص موجود ـ من حيث الشكل ـ كشواهد في كل من

إنجيلي متّى ولوقا. إن تقديم مسودة لهذا التاريخ لا يمكن أن يكون مُضجراً، إنه يستغرق في، ويخرج من، بحث رومانسي من يسوع التاريخي، فهذا البحث الذي له تعرجاته وانعطافاته لا تخلو استعادته من دعابة متعمدة. فالجزء الأول من هذا الكتاب يعد المسرح من أجل نظرة أعمق إلى الإنجيل المفقود ذاته.

القسم الثاني يقدم ترجمة إنجليزية لـ «ك» مصحوبة بدليل للقارئ. هذه الترجمة بالإضافة إلى تحليل لـ «ك» في الجزء الثالث هي المساهمة الرئيسية للكتاب.

في القسم الثالث، تسلط الملاحظات حول تأليف الإنجيل المفقود الضوء على مضمون تعاليمه، وعلى تاريخه الأدبي. وهذا سيجعل من الممكن تتبع نشاطات الحركة اليسوعية المبكرة وتجاربها عبر خمس مراحل من التاريخ الاجتماعي. هذه الصورة لحركة قوية تحدث بكل وعي في عالم ثقافات متنافسة، وتشكل تحدياً للنظرة التقليدية المتعلقة بالأصول المسيحية.

في مسار العرض في الجزء الثالث، يتضح أن ليس بالإمكان أن ننسب جميع الأقوال في «ك» إلى يسوع. لنكون متأكدين أن جميع التعاليم في «ك» تُنسب إلى يسوع، لكن الكثير منها تخاطب قضايا لا نجدها إلا في مسار تجارب اجتماعية لاحقة، وهي تحمل علامات التفكير بهذه التجارب. وهذه ليست ظاهرة تقتصر على «ك» أو على ممارسة تخص أناس «ك». لقد جمع العلماء عدة مئات من الأقوال المنسوبة إلى يسوع من أدب مبعثر من القرنين الثاني أو الثالث. لكن من بين هذه الأقوال، لم ينطق يسوع التاريخي سوى بالقليل منها فقط. يميز العلماء بانتظام هذه الظاهرة من خلال التمييز بين ما هي أقوال «موثوقة» وما هي غير «موثوقة»، ومن خلال تحديد تلك الأقوال التي بالإمكان عزوها إلى يسوع التاريخي على أنها «موثوقة». لكن هذا لا يفسر ظاهرة النسب هذه، ولا يكاد يريح إحساس القارئ العادي وضيقه عندما يُقال له إن يسوع لم يقل ما قاله أتباعه أنه قاله.

القسم الرابع يقدم التفسير بأن الأقوال الإبداعية الجماعية أصبحت تُنسب إلى يسوع كجزء من الرعاية لتراثاتها الشفوية، ولاسيما آراؤها المتغيرة

يسوع بصفته مؤسس الحركة. هذا التفسير يُستمد من ممارسات كانت شائعة بين أناس كثيرين في الزمن الغابر، ولمؤسسات رئيسية مثل المدارس ـ خلال العصور اليونانية ـ الرومانية. لكن ينبغي ألا نتهم أناس «ك» بذاكرات مشوشة، أو جلسات اجتماع نشوية، أو غش دون اكتراث، أنهم نسبوا أقوالاً جديدة إلى يسوع لم يكن حياً بينهم. بالإمكان فهم النسب كوسيلة عادية لتأليف قامت به أنماط محددة من الشخصيات المؤسسة.

في حالة أناس «ك» المتجهين كما كانوا إلى تعاليم معلمهم، فإن نسب التعاليم إلى يسوع كان شكلاً ملائماً لتشكل أسطورة. لقد تمّ استثمار التعاليم المنسوبة إلى يسوع بطريقة مبرمجة، وجرى تشذيبها كموجه لهم وصُقلت على أنها مبرر عقلي، وتم تلخيصها كمدونة أخلاقية، واستخدمت كدلائل إقرار. وبذلك فإن حل مشكلة «عدم الموثوقية» في نسبتها تقوم بما هو أكثر من مجرد تفسير لسمة مميزة لمجموعة أقوال قديمة يجدها الناس في أيامنا هذه واهنة، ولسوف يتضح أن «ك» كان أكثر من مجرد مجموعة تعليمات ضرورية لدى أناس يسوع الأوائل. هدف نسب الأقوال إلى يسوع، وتصميمها الدقيق يمكننا أن نعتبرهما وراء خلق أسطورة أصل بارعة شديدة الفعالية. أسطورة المنشأ هذه طالبت بسلطة إلهية وملحمية ليسوع بوصفه شخصية مؤسسة دون أية حاجة إلى تبني مفاهيم إسطورية لمسيا صلبٍ قام من بين الأموات.

وهكذا نجد أن التحدي الذي يمثله «ك» للصورة التقليدية للأصول المسيحية هو أبعد مدى من مجرد إفساح حيز صغير لحركة مسيحية مبكرة. ولا يمكن أن تفهم الحركة اليسوعية التي يوثقها «ك» كشكل متنوع للقناعة المسيحية الأساسية في الصورة التقليدية للأصول المسيحية. فإذا وضعنا «ك» في الاعتبار فإن كامل المشهد لتاريخ المسيحية الأولى وتراثها يجب أن يخضعا إلى المراجعة.

يقترح القسم الرابع القيام بهذه المراجعة لتاريخ المسيحية الأولى وأدبها. ويعرف العلماء تماماً أن كتابات العهد الجديد هي مجموعة مختارة من أدب

مسيحي مبكر أكبر بكثير من ذلك. كما أنهم يتصدون أيضاً للفوارق بين كتابات العهد القديم عن طريق وضعها في سياقات مختلفة من التراث المسيحي المبكر، التي تُحدّدُ - في أغلب الأحيان - من خلال الرجوع إلى شخصية أو مؤلف بارز معروف. وهكذا لدينا تراث بولص، وتراث يونان، وتراث بطرس وهلم جرا. وبما أن دراسات العهد الجديد يوجهها الاهتمام بمنهج المعتقد لدى المسيحيين الأوائل، فإن الدارسين يشيرون إلى أوجه الاختلاف بين التراثات على أنها اختلافات لاهوتية. إن دارسي العهد الجديد يعرفون أن هناك لاهوتات مختلفة كثيرة في كتابات العهد الجديد، وتمثل هذه الحقيقة نقطة افتراق من أجل مناقشة الأشكال العديدة للمسيحية الأولى.

لكن تتبع لاهوتات عديدة لا يجيب على التحدي الذي يمثله «ك». إن مفهوم لاهوتات متعددة يترك في المكان افتراض أن حدثاً واحداً، دراميأ أو إعجازياً، أو تجربة مفردة قد يقدم تفسيراً لتعدد أشكال المسيحية الأولى. فعن طريق افتراض منشأ واحد لجميع التراثات المسيحية المبكرة، يُعتَقَدُ أنه الظهور الحاسم وقيامة ابن الله من بين الموتى، يصبح بالإمكان فهم تعدد اللاهوتات كمحاولات متنوعة لتفسيرٍ مُفصّل للمعنى الغامض المتضمَّن في لحظة النشوء الإلهية تلك. فالتحدي الذي يمثله «ك» هو أن حركة يسوعية قوية نشأت دون الاستعانة بحدث مُوَلّدٍ كهذا، سواء كان تجربة دينية أم رسالة خلاص. إن «ك» يوضح أن عوامل أخرى غير الاعتقاد بأن يسوع كان إلهياً قد لعبت دوراً في نشأة الحركة اليسوعية والمسيحية المبكرة. فما تلك العوامل يا ترى؟

كانت الحركات اليسوعية المبكرة تتسم بالجاذبية كساحات من أجل تجريب اجتماعي تستدعيه أوقات مضطربة وصعبة. التغيرات المتكررة في القدرة العسكرية، والفتح السياسي الذي دشنته حملات الإسكندر الكبير، والإمبراطوريات الناشئة بدءاً من البطالمة والسلوقيين إلى مجيء الرومان، هذه كلها حطمت أساليب الحياة الاجتماعية القديمة في شرق المتوسط. فكان الناس يُعرفون من خلال أصولهم الإثنية وثقافاتهم التراثية، بيد أن المؤسسات الاجتماعية في دول المدينة، ودول المعبد التي كانت تدعم تلك الثقافات

كانت قد مضت وإلى الأبد. فتراثات ثقافية مقتلعة كانت تتصادم في مدن مليئة بسكان مقتلعين من أماكنهم. وكان الانسجام فيما بينهم في عالم مضطرب هو المسألة الحرجة. ومن ثمَّ كانت هذه الحقبة مناسبة كي يفكر الناس بأفكار جديدة حول القيم التراثية، وللتجريب بتداعٍ حر لحدود ثقافية وإثنية.

كانت الحركة اليسوعية جذابة كمكان للتجريب بمفاهيم اجتماعية جديدة وأساليب حياة جديدة. لقد نشأت نتيجة وعي مدروس وحساس بالأوقات والوضع الحرج تجاه قيم ثقافية سائدة. لقد استُدعيتْ إلى ميدان المساءلة منظومات الشرف التقليدية القائمة على السلطة والثروة والمكانة الاجتماعية في بنىً اجتماعية تراتبية. كما استُدعيتْ أعراف الطهارة الطقوسية، والمحرمات المفروضة على الاتصال بأناس من جذور إثنية مختلفة، وكذلك الاقتصاد الذي كان عماده فرض الضرائب. لقد تمّ تشجيع الناس على أن يحرروا أنفسهم من القيود الاجتماعية التقليدية، وأن يعتبروا أنفسهم أنهم ينتمون إلى عائلة إنسانية أكبر. فكما يصوغ «ك» الأمر: «إن تعانق أخوتك فقط، فما الذي تفعله غير ما يفعله الآخرون؟».

في البداية لم يكن هناك امرؤ مسؤول عن الجماعات التي تشكلت حول هذه التعاليم. فالحديث عنها والدعم المتبادل كانا كافيين لتشجيع الفرد على أن يفعل بشكل طبيعي، وكأنما التوقعات العادية لقبول العادات الاجتماعية لم يكن لينطبق على هذه الحالة. كانت الجماعات المتشكلة دعماً للأفراد المتماثلين ذهنياً، إلا أن الولاء للحركة اليسوعية قد أصبح قوياً فتولدت ضمن الجماعة نظرة اجتماعية لمصلحة وجود إنساني، فكان لا بُدّ من الموافقة على الأعراف الاجتماعية لهذه الحركة. فلماذا لا تطلب عندما تدعوك الحاجة إلى ذلك، وأن تشارك الآخر عندما يطلب منك؟ هذا ما كانوا يطرحونه متسائلين. وفي نهاية المطاف اتخذت الحركة اليسوعية شكل جماعات صغيرة تلتقي معاً كعائلات موسّعة، سعياً وراء ما أسموه ملكوت الله.

استكشاف تجمع بشري قائم على صلة قرابة وهمية دون اعتبار

للمحرمات المعروفة ضد رابطة قائمة على الطبقة أو المكانة الاجتماعية أو الجنس أو الإثنية خلق خضّة وحراكاً. ولغياب خطة كبيرة لتفعيل هذه الرؤية، قامت الجماعات المختلفة بإرساء ممارسات كانت تتباين من جماعة إلى أخرى. فالتقدير النابع من أشكال التجمعات العديدة ـ التي نشأت ضمن الحركة اليسوعية، كما هو موثق في التراث ـ الذي بدأ يظهر في نحو نهاية القرن الأول ـ كان لدى هذه الجماعات مجموعة مواقف سياسية مشتركة فيما بينها، ولها موقف نقدي محدد تجاه الأسلوب الذي كانت تُعَاش به الحياة في العالم الروماني ـ الإغريقي. كانوا جميعاً يكافحون كي لا يكونوا محكومين بخواء المساعي البشرية في عالم تقاليد لم يعد سطحياً. وتعلموا جميعاً تطبيق مفهوم ملكوت الله على روح العصر التي تطورت في مجتمعهم. وعلى الرغم من هذه التوافقات، مضت كل جماعة في سبيلها الخاص بها، وتوصلت إلى استنتاجات مختلفة حول ما الذي تفكر به وفيما تفعله.

التفكير في التجارب والموارد البشرية التي تتطلبها هذه التجريبية الاجتماعية يجعل من الممكن ليس فقط فسح المجال لأناس «ك» في تاريخ الحركة اليسوعية المبكر، بل يتيح أيضاً فهم كل الجماعات التي تشكلت كتمظهرات سعي عام من أجل مجتمع إنساني ملائم لتلك الأزمنة. يضع الجزء الرابع «ك» على خارطة التراث المسيحي المبكر، ويدمج الحركة اليسوعية مع تراثات أخرى أدخلت في نسيج المسيحية في نهاية المطاف. بالإمكان وضع جميع النصوص المسيحية المبكرة في نقاط محددة من التاريخ الاجتماعي لجماعة ما. كما أن بالإمكان دراسة كل نص كتعبير عن فكر جماعة محددة وخطابها في ذلك الوقت. إن يرسم المرء مخططاً للتراثات الفكرية المتنوعة وللّاهوت، آخذاً بعين الاعتبار التغيرات التي تعكسها في التكوين الاجتماعي، يصبح بالإمكان التصدي للمختارات الأخيرة للنصوص التي تمّ تقديمها في العهد الجديد. وبذلك تصبح قصة «ك» حلقة تامة، تنتهي بعرض موجز لنصوص العهد الجديد التي استفادت من «ك» لتضمن عدم اندثاره من تراثات الذاكرة في الكنيسة المسيحية. إن فهم الامتياز الممنوح إلى

الأناجيل السردية في العهد الجديد لدى الكنيسة المسيحية، يعني فهم السبب الكامن وراء نسيان «ك» مع الزمن، ولماذا خلقت استعادته ـ في السنوات الحديثة ـ نوعاً من الصدمة في أوساط العلماء المسيحيين.

فبما أن التحدي الذي يمثله «ك» لا يمكن احتواؤه ضمن حلقات العلماء، فإن الكتاب ينتهي ببعض أفكار عن دور الإنجيل المسيحي في الثقافة الأمريكية المعاصرة. فإذا كان «ك» يلزم علماء الكتاب المقدس ومؤرخي الدين أن يراجعوا فهمهم للتاريخ المسيحي المبكر، فإن متعلماً من عامة الناس قد يود أن يعرف عن هذا الإنجيل. وهذا ـ بدوره ـ سوف يشكل فارقاً في الطريقة التي يقرأ بها المسيحيون الأناجيل السردية، إذ لم يعد ممكناً اعتبار الأناجيل السردية عروضاً موثوقة لأحداث تاريخية مؤثرة على أنها أساس الإيمان المسيحي. يجب أن تعتبر الأناجيل كنتيجة لخلق أسطورة مسيحية مبكرة. إن «ك» يطرح القضية بقوة لأنه يوثق تاريخاً أكثر قدماً لا يتفق مع عروض الأناجيل السردية.

لقد كتبتُ هذا الكتاب وهذا التحدي ماثل نصب عيني، لأن القضايا المثارة فيه عميقة وبعيدة المدى. إنها ليست قضايا فكرية ووجدانية فحسب بالنسبة للمسيحيين. إنها تجعل المرء يتساءل عن الأسباب الكامنة وراء المواقف المعروفة تجاه الأكاديمية، وبخاصة السهولة التي قد تستبعد الدراسة الأكاديمية للدين. إنها تجعل المرء يتعجب من النقص المعرفي الرهيب من جانب وسائل الإعلام، ونقّاد الفنون الجميلة، والخطاب العام عندما يطرح موضوع الدين والمجتمع. إنها تضرب حتى الصميم تردداً متخندقاً في مجتمعنا عند مناقشة الأسس الأسطورية لمواقف وقيم مشتركة ومتنازعة تؤثر في طريقة تفكيرنا وسلوكنا وفي بناء مؤسساتنا. من الصعوبة بمكان مناقشة «ك» دون الانخراط في حديث نزيه حول الأسطورة المسيحية، وحول الحلم الأمريكي. فإن نأخذ «ك» جدياً، فإنه سوف يحول البحث من بحث عن الأصول المسيحية إلى سؤال عن مدى رغبتنا في أن ننخرط جدياً في عملية نقد ثقافي.

الجزء الأول

اكتشاف الإنجيل المفقود



١ ـ العثور على الشذرات

في العصور الحديثة، اكتشف مغامرون وباحثون عن الكنوز، وعلماء آثار كتابات قديمة كثيرة في مواقع أثرية وكهوف وفي مكتبات أديرة قديمة. بعض هذه المكتشفات كان عبارة عن مخطوطات قديمة لكتابات معروفة مثل النصوص التوراتية المكتشفة في دير القديسة كاترين عام ١٨٥٠، أو في قمران في أربعينات القرن العشرين. ومكتشفات أخرى هي كتابات تُعرف بعناوينها فقط لأن مؤلفاً قديماً قد جاء على ذكرها، وظنّ أنها ضاعت ونُسيت أو حُرقت أثناء الحروب الدينية في القرنين الرابع والخامس للميلاد. أحد الأمثلة على ذلك هو اكتشاف إنجيل برنابا في دير القديسة كاترين في عام ١٨٥٩، أو تعاليم الرسل الإثني عشر في المكتبة البطريركية في القسطنطينية عام ١٨٧٥. أما مكتشفات أخرى فقد أتت كمفاجآت تامة، وهذا ما أحدثته لفائف البحر الميت من المكتبة القديمة في قمران، وكذلك المكتبة الغنوصية القبطية في نجع حمادي المكتشفة في أربعينات القرن العشرين.

في السعي لإعادة بناء الماضي قُوبل كل اكتشافٍ لنصٍّ جديد بدرجة من الحماسة، بينما خلقت اكتشافات أخرى حساسيات. فالنصوص الجديدة ممتعة للدارسين لأنها تحمل وعداً بمعرفة جديدة، وتحرّض آخرين بإحساس أن أسراراً دفينة على وشك أن يُكشف النقاب عنها. أما مسألة اكتشاف «ك» فلم يرافقها إعلان عن ذلك، والحماسة العامة كانت قليلة، ولم يكن هناك إحساس بأن شيئاً سرياً كان على وشك أن يماط اللثام عنه. ذلك لأن «ك» لم يكتشف

في مخبأ قديم، ولم تظهر فجأة إلى النور مخطوطة بعنوان «ك أقوال يسوع». فبدلاً من ذلك كله اكتُشفت شذرات ونتف من هذا المؤلف القديم مبعثرة في أرجاء العهد الجديد، وهذه كانت نصوصاً مألوفة جداً. لقد تمّ الأمر بمحض المصادفة، من خلال تتبع التراثات المتوضعة في هذه الأناجيل، لقد ظهر «ك» ببطء شديد. إلا أن وجوده في أساس التراثات اليسوعية قد فرض نفسه على الدارسين بكل قوة، لاحظ هؤلاء الأهمية المباشرة لاكتشافهم لأن المادة كانت معروفة جيداً من قبل.

ففكرة أنه لا بُدّ أن يكون هناك نص مثل «ك» تبادرت إلى الذهن لأول مرة قبل نحو مئة وخمسين سنة خلت. لكن التعرف عليها كوثيقة لها تاريخها المميز الخاص بها كان عليه أن ينتظر حتى مجيء الجيل الحالي من العلماء. فأحد الأسباب التي جعلته يستغرق مدة طويلة هو أن دارسي العهد الجديد كانوا مسكونين برغبة إعادة بناء حياة يسوع. لقد كانوا منشغلين بتلك الجوانب الحافلة بالأحداث من الأناجيل، وقلقين حيال سماتها الإعجازية، لا حول التعاليم التي أخذوها كأمر بديهي. وهناك سبب آخر: طالما أن «ك» كان يشير إلى مصدر مُدون كان يُستخدم بطرق مختلفة قليلاً على أيدي مؤلفين مستقلين هما «متى، ولوقا» فإن إعادة نص واحد موحد من أجل الدراسة والمناقشة اعتبر أمراً محالاً. أما السبب الثالث فهو مقاومة الكثيرين من علماء العهد الجديد فكرة وجود «ك» لأنهم اعتقدوا أن لا وجود لنموذج آخر لهذا الجنس في الأدب المسيحي المبكر، ومن ثم لم يستطيعوا أن يتخيلوا السبب الذي دفع المسيحيين الأوائل إلى كتابة نص كهذا.

على أية حال كشفت الدراسة المقارنة للأناجيل أن طبيعة تعاليم المسيح غدت مسألة حاسمة في نهاية الأمر. لقد تمّ تطوير طرق لإعادة بناء النص في «ك» كما عُثر على نموذج آخر من هذا الجنس الأدبي هو إنجيل الأقوال المعروف باسم إنجيل توما. فانصرف الدارسون أخيراً إلى مسائل مثل إعادة جمع لـ «ك» ودراسة محتواه. إن استكشاف موجز عن اللحظات الرئيسية في

تاريخ هذه الدراسة الطويل يساعد في فهم كيف ظهر «ك» ولماذا، من بين صفحات الأناجيل السردية كي يتحدى عرضها للأصول المسيحية. وفي هذا الفصل سنروي قصة اكتشاف «ك» كنص مكتوب. وفي الفصول الثلاثة التالية سوف نستعرض الحماسة الراهنة لدى الدارسين حول التعرف على جنس «ك» الأدبي، وعلى أهميته في إعادة بناء تاريخ الأصول المسيحية.

تبدأ القصة في مطلع القرن التاسع عشر، ويعرف هذا القرن ببحثه عن يسوع التاريخي. فهل كان البحث ممكناً بالأساليب العقلانية في النقد التاريخي التي بشر بها عصر التنوير. لكن القصة كانت مدفوعة بهاجس بروتستانتي رومانسي تماماً.

لقد زعم النقد البروتستانتي للكنيسة الكاثوليكية أن الدين الكاثوليكي كان خليطاً وثنياً مع مسيحية حقة، ولمعرفة المسيحية الحقة، وضع المصلحون البروتستانت - في البداية - مصداقيتها في الكتب المقدسة كوسيلة لمواجهة التأكيد الكاثوليكي على التراث ما بعد التوراتي، على أنه ذو أهمية مساوية للإيمان المسيحي والشعائر المسيحية. لكن ما إن بزغ فجر التنوير حتى طرحت استراتيجيات أخرى نفسها. فماذا لو كان بالإمكان اعتبار المسيحية الكاثوليكية بمثابة تطور تاريخي انحرف بعيداً عن النيّات الأصلية التي كانت لدى يسوع، وعن أشكال الجماعة المسيحية الأولى، وعن الأشكال الأولى للإيمان المسيحي؟ عندئذٍ سيتم صياغة القضية البروتستانتية: جوهر المسيحية سيكون واضحاً من النقاء الشديد لشكلها الأصلي. وسيتعين الإقرار بأن المزاعم البروتستانتية تمثل الشكل الحقيقي للمسيحية. وبالتالي، فإن البحث عن يسوع التاريخي كان مدفوعاً برغبة بروتستانتية للقيام بقفزة فوق كل تاريخ المسيحية الكاثوليكية، والهبوط في نقطة البداية حيث - كما تخيل البعض - وُضعتْ أساسات المسيحية في حياة وهدف مؤسسها.

المشكلة في هذا المسعى هي أن السجلات الوحيدة لحياة يسوع هي الأناجيل الأربعة في العهد الجديد. في البداية، ظن الدارسون البروتستانت أنه

يكفي الإشارة إلى التناقض بين يسوع الإنجيل وبين تاريخ الأيقونات الوثني والعبادة في الدين الكاثوليكي. لكن لم يكن لدى الكاثوليك مشكلة مع الأناجيل. لقد قرؤوها دائماً كسجلات للأحداث ذاتها التي ألهمت دينهم. مريم وقصة الولادة العذراء من بينها، وكذلك المعجزات سواء في الظهور العلني ليسوع وفي الأحداث الكبيرة التي أكدت أهمية حياته: التعميد والتحول والصلب والقيامة. كما كان بطرس هناك، وكذلك الحواريون الاثنا عشر، ومريم المجدلية، والمهمة الكبرى لتشكيل تلاميذ من جميع الأمم. وكان هناك تلقين كاف في الإيمان، والصفح، والطاعة، والحساب الأخير. بالتالي كان على الدارسين البروتستانت أن يتبنوا نظرة أخرى. فبعد قراءة متأنية أكثر للأناجيل كان عليهم أن يوافقوا على أن الأناجيل كانت تحتوي على قدر كبير من الميثولوجيا، ومعجزات كثيرة أكثر مما يجب. لقد وضع هذا جدول الأعمال لأكثر من مئة سنة من تَقَصٍّ تفصيلي. غاية البحث هي الوصول إلى ما وراء الأساطير والمعجزات في الأناجيل، وإعادة بناء قصة الإنسان كما كانت فعلاً.

في عملية استرجاع، يبدو غريباً أن ما من امرئ فكر بالتساؤل عن خط القصة الرئيسي الذي نتج عن دمج الأناجيل الأربعة، وموجز حياة يسوع الذي يحمله جميع المسيحيين في أذهانهم. لكن كان هذا لأنه لم يتخيل أحد أن كتبة الأناجيل ـ كما كانوا يُسَمّون في القرن التاسع عشر ـ كانوا يريدون أي شيء سوى تدوين سيرة يسوع. سيرة حياة شخص مهم هي تماماً ما كان يتوقعه أي دارس من القرن التاسع عشر، وأن يقوم به كاتب من القرن الأول. لقد كانت المشكلة أن كتبة الأناجيل عاشوا في عصور ما قبل عصر التنوير، ما يعني أنهم كانوا غير نقديين، ولا بد أنهم كانوا بسطاء في تناولهم أسباب أحداثٍ محددة، وكانوا على خطأ إلى حد ما في الكثير من التفاصيل. وتجدر الإشارة إلى أن ما من كاتبين اتفقا تماماً في وصفهما للأحداث ذاتها، كما أنهم جميعاً لديهم متاعب تتعلق في عدم إبقاء تواريخهم خلواً من الإعجازي والأسطوري، وهكذا فإن البحث عن المسيح التاريخي كان يدور حول قضايا

المعجزات الأساسية أو المعجزات وحول حقيقة أن الروايات الأربع لا تتفق في التفاصيل.

إن مناقشة الجهود المبذولة لإزاحة غلالة الإعجازي عن الروايات الإنجيلية لا ترتبط باكتشاف «ك» مباشرة، لأن اكتشافه تمّ أثناء عملية مقارنة الأناجيل الأربعة من أجل معرفة أي منها أكثر قِدماً، وليس عبر أية محاولات لتفسير المعجزات. مع ذلك فقد طغت الحماسة المتعلقة بالمعجزات على البحث الأكثر جدية لمعرفة أي الأناجيل أكثر قدماً. فهذه اللمحة التاريخية تساعد في توضيح لماذا استغرق التعرف على «ك» ردحاً طويلاً من الزمن. فالمعركة المستعرة حول المعجزات شغلت علماء عصر التنوير، وانتهت إلى دراسات خلقت حساسيات. فمن جون لوك /معقولية المسيحية/ ١٦٩٥ مروراً بكتاب فريدريك شتراوس /حياة يسوع / ١٨٣٥، إلى ألبرت شفيتزر وكتابه /البحث عن يسوع التاريخي/ ١٩٠٦ الذي لخص القرن، كان البحث هو ذاته دائماً: كيف نفسر المعجزات. فروايات المعجزات عموماً لا يمكن تصديقها، إلا أن معجزات يسوع ربما حدثت فعلاً لأنها كانت غير عادية أبداً، وغير قابلة لأن تتكرر، ولأنها فريدة. بينما اعتقد آخرون أن عامة الناس تخيلوا المعجزات لأنهم كانوا محبين لهذا الرجل لذاته. لقد كتب شتراوس وآخرون آلاف الصفحات في تفسير المعجزات على أنها أوهام، أساطير، وحكايات أسطورية. كما أن شتراوس أشار إلى أن هذه الأساطير كانت ملائمة في مسار المحاولات المسيحية الأولى، لتأكيد كم كان ظهور يسوع أمراً مهماً. لقد وجد العلماء المنشغلون بهذا البحث صعوبة في التركيز على مسألة أي الأناجيل دُوّنَ أولاً. لقد بدت جميع الأناجيل أنها تحتوي معجزات كثيرة، وبدا التخلص من المعجزات أمراً في أعلى قائمة الأولويات إذا أراد المرء الوصول إلى حياة يسوع ـ الإنسان كما كان فعلاً.

إن مسألة أي من الأناجيل كُتب أولاً بقيت مزعجة حتى للعقول النقدية، مثلها مثل اللغز الصيني: لقد اتفق العلماء على أنه لا بُدّ أن يكون أحد

هذه الأناجيل كُتب أولاً، والمشكلة هي أن الجدالات التي تدعم أولوية هذا الإنجيل أو ذاك ليست جدالات تستند على بينة حاسمة. فهذه المشكلة لا يمكن حسمها إلا بدراسة جادة معمقة تستخدم مجموعة واحدة من المبادئ النقدية في مقارنة الأناجيل بعضها مع بعض. لقد قدم يوهان غريسباخ الطريقة للقيام بذلك في عرض موجز لمقارنته الأناجيل الثلاثة الأولى، ونشرها في عام ١٧٧٦. وقد أكد أن الإنجيل الرابع كان مختلفاً بكل وضوح عن الأناجيل الثلاثة الباقية. ففي الإنجيل الرابع بدا يسوع مثل إله دون عواطف، في مهمة مؤقتة من عالم آخر، ومُحبط فقط بجهل الجنس البشري في عالم ممل. ونبرة صوت يسوع الحساسة في إنجيل يوحنا وضعته بعيداً عن الأناجيل الثلاثة الأولى، وأعطته دعماً يسيراً بأنه تاريخي. وهكذا قام غريسباخ بوضع الأناجيل الثلاثة الأولى إلى جانب بعضها من أجل المقارنة أو للنظر إليها معاً، وبذلك أدخل ما سيعرف لاحقاً باسم مشكلة الترتيب والعلاقات المتداخلة بين الروايات المتشابهة الثلاث synoptic.

الحل الذي قدمه غريسباخ للمشكلة كان اعتبار إنجيل متّى هو الأول، لكنه غيَّرَ ترتيب إنجيل مرقس وإنجيل لوقا مجادلاً أن إنجيل مرقس كان أنموذجاً وهو الأخير في التدوين. بينما تساءل آخرون ما إذا كان من الضروري تغيير ترتيب إنجيلي مرقس ولوقا، لكن وافق معظمهم على أن إنجيل مرقس كان الإنجيل الأول. لقد بدا ذلك صواباً لأن مرقس ولوقا لم يكونا «رُسلاً»، وإنجيل متَّى كان الإنجيل الأول في العهد الجديد، أليس كذلك؟

توقفت هذه الجدالات في ثلاثينات القرن الثامن عشر عندما تناول العلماء في فورة نشاط مشكلة الترتيب والعلاقات بين الأناجيل بتصميم جديد، وفي ذلك الوقت كان معروفاً لدى عامة الدارسين أن الأناجيل الثلاثة تشترك فيما بينها بكمية مهمة من المادة السردية، بينما يضم كل من إنجيلي متَّى ولوقا مادة كثيرة ليست في إنجيل مرقس. فكانت المساهمة التي قدمها كارل لاخمان (١٨٣٥) هي ملاحظة أن إنجيلي متَّى ولوقا كانا يتفقان في

ترتيب مادة إنجيلهما فقط عندما كان يسيران على خطا مرقس، وعندما لا يفعلان ذلك فإن متَّى ولوقا يمضيان كل في سبل منفصلة حتى عندما يقدمان مادة غير مرقسية مشتركة فيما بينهما. وأشار لاخمان أيضاً إلى أن المادة الموجودة في إنجيل متَّى والتي ليست موجودة في إنجيل مرقس كان موضوعها الأساسي هو أقوال يسوع، وهذا نوع مادة لا يشكل سمة مميزة لإنجيل مرقس. وقد توصل كريستيان وايلك إلى هذه النتيجة، ودافع عن أولوية إنجيل مرقس، وعن أن إنجيل مرقس لا بُدّ أنه الأقدم من بين الأناجيل، وأن متَّى ولوقا اعتمدا على الرواية المرقسية. أما كريستيان ويس بعد أن قام بجمع القطع معاً عام ١٨٣٨ فاقترح «فرضية الوثيقتين» خاصة أن متَّى ولوقا ألّفا إنجيليهما على نحو مستقل، بدمج مصدرين مكتوبين: أحدهما كان إنجيل مرقس والمصدر الآخر لا بُدّ أنه كان يحتوي على أقوال يسوع. وهكذا تمّ اكتشاف «ك».

على الرغم من منطق فرضية المصدرين إلا أنها لم تنل قبولاً فورياً بين العلماء. والسبب الرئيسي وراء مقاومتهم له هو علاقة بسيطة بفكرة مصدر الأقوال أكثر من علاقته باعتراف متردد بأولوية إنجيل مرقس. تفضيل إنجيل متَّى كان قوياً جداً. لقد نال إنجيل متَّى على الدوام مكانة الامتياز على أنه الميثاق للكنيسة. يضاف إلى ذلك أن إنجيل متَّى كان أكثر ملاءمة في البحث عن يسوع التاريخي. فمن ناحية لا يقدم إنجيل مرقس ما يكفي حول هذه النقطة، ومن ناحية أخرى إنه مليء بالمعجزات بحيث يتعذر اتخاذه منطلقاً للبحث عن حياة يسوع. لقد خُلق متَّى كي يُرتب. فلوحة يسوع مقبولة أكثر، والهدف من تعاليمه بدا أكثر وضوحاً، وحياته تتكشف على إشارة مناسبة كما يجب أن تكون عليه السيرة الذاتية. فعندما لخّص ألبرت شفيتزر البحث عن يسوع في نهاية القرن، ثم مضى ليقترح عرضه الخاص لحياة يسوع لم يكن لديه شكوك إطلاقاً حول جعل عرضه مبنياً على إنجيل متَّى. فحتى أيامنا هذه، هناك دارسون ما يزالون يقاومون فرضية المصدرين، ويفضلون إنجيل متَّى على أنه الأكثر قدماً.

لكن فرضية الوثيقتين أجابت عن المزيد من الأسئلة المتعلقة بعلاقات تناص بين الأناجيل الثلاثة أكثر مما أجابت نظرية أولوية إنجيل متَّى، وبذلك يجب أن تؤخذ جدياً من قبل الدارسين النقاد. ولقد أُخذتْ جدياً، على الرغم من أن التقدم في إظهار تفوقها كان بطيئاً. ينبغي على المرء تتبع منعطفات وتعرجات الدراسة للكتاب المقدس طوال مئة سنة تقريباً لرؤية التغير النهائي في النموذج الذي سمح بقراءة «ك» كنص مستقل بحد ذاته. فالقائمة التي تضم أسماء الذين قدموا مساهمات مستمرة لتفحص وتشذيب الفرضية قائمة طويلة ومعروفة. لقد وضع هـ. ج. هولتزمان فكرة «ك» على المحك في تَقَصٍّ مُضنٍ في عام ١٨٦٣، واستنتج أنه كان صحيحاً بالأساس. فبرناردو العلّامة المحافظ والدقيق بالعهد الجديد أوضح اعتماد لوقا على «ك» في عام ١٩٠٧. وفي السنة ذاتها نشر أدولف فون هارناك ـ المؤرخ المعروف للمسيحية الأولى ـ كتيباً يدعى/أقوال يسوع/ وظهرت ترجمة هذا الكتاب في الإنجليزية عام ١٩٠٨، نُشرت فيه مجموعة أقوال تقترب من «ك» بمعزل عن سياقها الإنجيلي. لقد أراد هارناك أن يرى كيف بدت تعاليم يسوع عند فصلها عن مسرح المعجزة والأسطورة.

وبحلول عام ١٩٢٠ نشر كل من رودولف بولتمان، وب.هـ. ستريتر دراسات رائعة حول التراتب والعلاقات المتداخلة بين الأناجيل، كما لاقت الفرضية ذات المصدرين قبولاً كبيراً في أوساط علماء التراث الليبراليين. لقد استخدمها بولتمان لوضع معايير الكتابة/ تاريخ التراث /١٩٢١، ولتتبع التغيرات التي طرأت على أقوال فردية في الوقت الذي كان التراث فيه يتطور. بينما ركز ستريتر على التراثات المخطوطة للأناجيل، وعاملها كوحدات أدبية كاملة، وأنتج مقارنة مفصلة لكل إنجيل مع الأناجيل الأخرى. كما ركز طوال الوقت على القراءات المتباينة لكل تراث مخطوط. وبذلك غدت دراسة ستريتر رائعة كلاسيكية، وعُدَّت أنها ترسي دعائم الفرضية ذات المصدرين. لقد فعل ذلك عندما أوضح أن الفرضية ذات المصدرين تقدم إجابات أفضل لمسألة التوافقات والتباينات في إنجيلي متَّى ولوقا، حيث استخدم كل منهما ـ

وبشكل مستقل ـ المصدر ذاته. قد يعتقد المرء أن العلماء ـ بعد ستريتر ـ سوف يتحولون إلى «ك» على أنه الدليل الأفضل والأقدم على الفصل الأول من التاريخ المسيحي، لكن ذلك لم يحدث طوال نصف قرن آخر.

عند هذا المنعطف في تاريخ اكتشاف «ك» هناك عائقان رئيسيان حافظا على أهمية تحديه من بلوغ الإثمار. كان أحدهما أن «ك» كان ما يزال يعتبر أساساً جزءاً من الحل لمشكلة الترتيب والعلاقات المتداخلة بين الأناجيل. لقد عرف الناس الكثير عن «ك»، لكن عرفوه فقط كمصدر وثيقة لإنجيلي متَّى ولوقا وليس كنص ذي كيان خاص به. والوصف النموذجي ـ في هذه الأثناء ـ هو أن «ك» بمعظمه كان يتألف من أقوال يسوع، ويضم بين دفتيه ما لا يقل عن /٢٢٥/ قولاً. فهذا التقدير كان مبنياً على المادة التي ظهرت في إنجيلي متَّى ولوقا معاً، أي على النص في حدّه الأدنى. لكن ربما كان «ك» أطول من ذلك، لأن كلّاً من إنجيلي متَّى ولوقا يحتويان مادة مماثلة لمادة «ك» ليست في الإنجيل الآخر. والمادة المشتركة تكاد تكون نصف متطابقة. ولغة التأليف كانت اليونانية. وقد عد متَّى مسؤولاً عن ترتيب معظم مادة «ك» في شكل خطب حول موضوعات محددة. بينما قدم لوقا المادة ذاتها في قطعتين كبيرتين، استطاعت إحداهما أن تعالج الفوارق في ترتيب الأقوال. إن ترتيب مادة «ك» بشكل عام قد عُدّت أكثر اقتراباً من الأصل. فعلى الرغم من أننا عرفنا الكثير عن «ك»، إلا أن الدارسين كانوا يعدونه بشكل أساسي مجموعة أقوال منفصلة، ولم يكن يُعدّ كتاب توجيهات له تاريخه الخاص به، وأقل بكثير من مخطط للحركة اليسوعية التي لم تكن تملك إنجيلاً سردياً.

أما الصعوبة الرئيسية الأخرى أمام إحراز تقدم في دراسات «ك» فهي أن تحديداً كهذا لم ينتج نصاً موحداً لـ «ك» لأنه كان ما يزال مستقراً بكل ثبات في نصوص الإنجيلين. فالذين كانوا يريدون دراسته لم يكن لديهم نص واحد ليقرؤوه، وكان عليهم أن يعملوا على مجموعة الأناجيل، ويقارنوا قراءات في عمودين، ويقفزوا إلى الخلف وإلى الأمام للحصول على التسلسل، وأن يدققوا

المادة بإمعان، لأنها قد تكون أو قد لا تكون جزءاً من النص الأصلي. فالذين يتحلون بالصبر فقط، ولديهم معرفة كاملة بالتراث الإنجيلي، وحزم من أقلام الرصاص الملون، ولديهم المقدرة على القيام بتحليل تفصيلي هم فقط الذين كان باستطاعتهم قراءة «ك». ولم يكن لديهم سوى أمل بسيط في الدفاع عن هذا التشذيب للنص أو ذاك، أو أن يستكشفوا جنسه الأدبي ومضمونه وتأليفه.

بعد الكتاب الذي ألفه ستريتر، كانت قد توافرت دراسات بين الأيدي في الوقت الذي كان علماء العهد الجديد يعملون فيه على مسائل أخرى كانوا يشعرون أنها ملحة أكثر. إحدى هذه المسائل ـ التي لم تحسم منذ نهاية القرن ـ كانت تهدد الرغبة البروتستانية في اعتبار المسيحية المبكرة ديناً «نقياً» دون شائبة.

لقد ظهرت دراسة تلو دراسة مفادها أن المسيحية المبكرة لم تكن ديناً «فريداً»، بل كانت متأثرة بأديان أواخر الفترة الرومانية القديمة. والذي كان يثير المتاعب على وجه الخصوص هو التشابه بين رسالة المسيحية الأولى مع الفكر الأبوكالبتي apocalyptic اليهودي، واكتشاف ربط المسيحية بشكل وثيق باليهودية من ناحية، فَغَرَّبَ الكنيسة الحديثة عن أصولها من ناحية ثانية. والمزعج كذلك كان اكتشاف أن المسيحية الأولى كانت تحمل في طياتها تشابهاً «واضحاً» مع العقائد السرية الهيلنستية، خاصة حيث كان الأمر في غاية الأهمية، في أساطيرها حول آلهةٍ تموتُ وتُبعثُ من جديد، وفي طقوسها في التعميد والوجبات المقدسة على وجه الخصوص. وهل كانت المسيحية الأولى أم لم تكن مختلفة عن أديان الثقافات المحيطة بها قد أصبح قضية مُلحة حارقة حولت الاهتمام بعيداً عن «ك»، وعن البحث عن يسوع التاريخي.

هناك مسألة أخرى غير محسومة منذ منتصف القرن التاسع عشر ـ طفت إلى السطح من جديد، وخلقت قلقاً أكبر حتى في أواسط العلماء. إنها: أين نحدد مكان أساس الدين المسيحي في النصوص المسيحية الأولى،

وكيف نفسر معناها للمسيحيين المعاصرين. فهل كانت نواة المسيحية ولبها موجودة في شخص يسوع ورسالته وفقاً لما جاء في الأناجيل، أم كان ذلك محتوى في تفسير بولص للإيمان المسيحي بتركيزه على كريغما Kerygma موت يسوع وقيامته؟ كان علماء العهد الجديد غير قادرين أن يقدموا إجابات حول ذلك، فوجدوا أنفسهم مُربكين من عدم تيقنهم حول «الرسالة» في لب الإيمان المسيحي، والكيفية التي قد «تُسمع» بها تلك الرسالة ثانية في صفحات العهد الجديد في أيامنا هذه. إيجاد سبل لموضعة الرسالة المركزية للمسيحية سمي المسألة التأويلية «hermeneutical»، واهتمام متجدد بهذا البحث عمّ دراسات العهد الجديد قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها.

بدأ برنامج بولتمان لتفسير العهد الجديد الخطا. أُقر أن المسيحيين الأوائل كانوا متأثرين بالعالم الذي عاشوا فيه في أواخر الحقبة الرومانية، وأنهم عبّروا عن أنفسهم في مفردات أساطيره. ولهذا السبب اقترح برنامجاً لتفكيك هذه الأساطير وشرحها، أو لإعادة صياغة معنى الرسالة المسيحية المبكرة في لغة غير ميثولوجية. كما اعتقدَ أنه تمّ التعبير عن المسيحية الأولى بعمق في كريغما وفي إنجيل يوحنا. لقد اعتقد بولتمان أن الفلسفة الوجودية الحديثة قادرة أن تقدم تفسيراً كهذا؛ وأن رسالة المسيحية قد خفضت إلى مجالات وجودية، وأنها كانت إعلان التحرر عن ماضي المرء، ودعوة لأن يكون المرء منفتحاً جذرياً إلى مستقبله. فالرسالة المسيحية ـ في الجوهر ـ كانت دعوة كي تتخذ القرار لمصلحة «وجود» إنساني «حقيقي». وقد أدى ذلك إلى إطلاق جدال غير مسبوق حول مرجعية اللغة الدينية في المسيحية الأولى. وكان يتم تتبع مسألة يسوع التاريخي بشكل جانبي فقط.

عندما حان الوقت للقيام بالبحث عن يسوع التاريخي، أكثر من التوجه لمعالجة مسائل حول تأثير الأديان الهلنستية واللغة الميثولوجية التي لا بُدّ من تناولها، كان قد كُتب كتابٌ خلقَ فوضى وإرباكاً أكثر مما سببته قضية التأويل. إنه كتاب كارل لودفيغ شميدت بعنوان /إطار قصة يسوع/، وهو

عبارة عن دراسة دقيقة للأسلوب الذي تمّ فيه تأليف أقدم إنجيل. فإنجيل مرقس تداعى بين يديه قِطعاً، وتحطم نتفاً، لأن شميدت كان قادراً أن يبين أن جميع الحلقات الرابطة بين القصص الأصغر في إنجيل مرقس كانت من عمل مرقس نفسه. هذه الدراسة التي نشرت عام ١٩١٩ وضعت بكل فاعلية نهاية للبحث القديم عن يسوع التاريخي، من خلال توجهها إلى سيرة حياته، وافتراضها غير المدقق بأن الحبكة الأساسية في الأناجيل السردية كانت بالأساس سجلاً تاريخياً. فباكتشاف أن مرقس كان مسؤولاً عن حبكة الإنجيل، وجميع ما تمّ تركه من الزمن قبل أن يصبح إنجيل مرقس أجزاء من تراثات ذاكرة، نثرات وقطع كنز شفهي، وربما مجموعات عِبَرٍ وقصص، فلربما قام شخص ـ ولأسباب ما ـ بربطها مع بعضها من خلال الموضوع. وهكذا فالحلم القديم كان في مشكلة، وكان يتوجب وضع استراتيجيات جديدة إذا قرر الدارسون أنهم لم يتخلوا تماماً عن البحث عن الأصول المسيحية. لقد تمّ وضع ثلاث استراتيجيات ما يزال العلماء يستخدمونها في يومنا هذا.

سُمّيَتْ الإستراتيجية الجديدة الأولى النقد الشكلي. فإذا كان الإطار السردي الأكبر للأناجيل من عمل مؤلفين لاحقين فماذا عن الوحدات السردية الأصغر التي منها أُلفتْ الأناجيل؟ ولماذا لا نقوم بتحليل الأشكال التي كانت التراثات اليسوعية متوفرة فيها، ونسأل عن مصداقيتها، فلربما تستطيع الأشكال التي نقلت فيها هذه القصص أن تخبرنا كيف ولماذا رُويت. ربما سيكون من الأفضل تفسير بعض منها كذكريات من أشياء قالها يسوع فعلاً، وفَعَلها. لقد كان نقد الشكل عاصفة في ميدان دراسات العهد الجديد. فالمؤلفات المهمة لكل من بولتمان، ومارتن ديبلوس Dibelius ١٩١٩، وفسنت تيلر ١٩٣٣ أصبحت معيارية بسرعة. وقام جيل كامل من علماء العهد الجديد بالتحول إلى أجزاء تراثات ما قبل يسوع الإنجيلي، وحاولوا وضعها في المراحل الأبكر من الذاكرة المسيحية، هذا إذا لم يضعوها في زمن يسوع، فالعبر، وقصص المعجزات، وقصص البيانات، ووحدات أقوال صغيرة قد تعرضت للتمحيص لرؤية ما إذا كان بالإمكان تخيلها كأقوال أو أحداث في حياة يسوع.

سيطرت النقدية الشكلية على دراسة العهد الجديد طوال الحرب العالمية الثانية، وحتى سبعينات القرن العشرين. وهذه المرحلة لم تكن مرحلة دراسات مركزة على «ك» كوثيقة لها سيادتها، بل عُدّت نافذة جيدة مهمة تطل على المشهد الاجتماعي للحركة اليسوعية المبكرة. فكما تداعى إنجيل مرقس قِطعاً، كان «ك» ما يزال يعد مجموعة أقوال صغيرة معزولة، وأن بالإمكان تحليلها كأشكال كلام. لكن التحليل النقدي للشكل كان يتطلب أيضاً ظرفاً اجتماعياً أو سياقاً أدبياً كي نفهم الغاية من قولٍ فردي ـ وبما أنه لم يتم اعتبار «ك» نتاجاً أدبياً له تاريخه الاجتماعي الخاص به، لم يكن للأقوال بيئة مكانية، ولذلك لم تستطع دراسة الأقوال في «ك» أن تساهم كثيراً في مشروع النقدية الشكلية.

بعد الحرب، بدأ العلماء بتحويل اهتمامهم إلى الأناجيل كوحدات تأليف أكبر. إلا أن الوقت كان قد حان لجمع القطع ثانية. فالنقطة المتعلقة بكتبة الأناجيل ـ كونهم مسؤولين عن الإطارات السردية للأناجيل ـ أصبح بالإمكان تحويلها إلى مزية في نهاية المطاف. كان يُطلق على مؤلفي الأناجيل في البداية «الكَتَبَة» على الرغم من أنهم ألفوا أناجيلهم عن طريق ترتيب وتغيير مادة مكتُوبة سابقاً. وبالرغم من وجود رغبة بعدم إعطاء كتبة الأناجيل ميزة كبيرة ككُتاب مبدعين، إلا أنه تمّ إقرار التأليف الحقيقي أخيراً، وبذلك تلاشت افتراضات ساذجة حول رواية التاريخ. وأصبح القصد التأليفي لكتبة الأناجيل يدعى لاهوتاً. فالرؤية التي بناء عليها رتّبَ كاتب الإنجيل إنجيله أصبحت تعدّ لاهوتاً، وسمي ذلك نقدية التحرير. لقد تعلم العلماء كيف يقومون بها، لكن عرف كل واحد منهم أن نقدية التحرير لم تُرضِ البحث عن الأصول المسيحية، ولا البحث عن مفتاح تأويلي لجوهر الرسالة المسيحية. فنقدية التحرير قللت من أهمية حقيقة أن المسيحيين الأوائل قد أنتجوا لاهوتات عديدة.

لكن لم يمض زمن طويل حتى أفسحت نقدية التحرير المجال لنقدية أدبية

صارمة أملتها نظريات معاصرة في الكتابة والتأليف. حدث هذا في أمريكا خلال ستينات القرن العشرين عندما كانت الدراسات الدينية تبتعد عن نظريات البرامج اللاهوتية كي تستقر في الجامعة. لقد وجد علماء الكتاب المقدس أنفسهم في حوار مع كامل مجال العلوم الإنسانية وبدا مهماً لفهم العهد الجديد في سياق ظهور المسيحية كظاهرة ثقافية معقدة. فعند قراءة النصوص المسيحية المبكرة على خلفية تواريخ اجتماعية جدلية في العصر الروماني ـ الإغريقي، فإن هذه النصوص سرعان ما كانت تفقد غطاءها الشفاف ذا الأهمية اللاهوتية النموذجية، وكانت مسقطاً في المكان بحيث نُظر إليها كإنجازات أدبية صيغت في صخب تجريبية اجتماعية مثيرة.

عرض جديد للمقاربات النقدية لهذه النصوص خلق ـ بعد ذلك ـ حماسة خاصة في القرن العشرين. لقد تعلم علماء العهد الجديد أموراً تتعلق بالكلام والبلاغة، والمخيلة السردية، والعلاقة بين التأليف والسلطة. لقد اكتشفوا نماذج تشكيل اجتماعي، وبنى المجتمعات البشرية، وخلق عوالم رمزية، والسبل التي عملت فيها الأساطير والطقوس لصياغة هوية الجماعة، عندما كانوا يقرؤون الأدب الذي أنتجه المسيحيون الأوائل. هذا العلم الجديد جلب جماعات وحركات إلى مجال الرؤية، ولم يكن لهذه الجماعات والحركات مكان على الخارطة الأقدم للبدايات المسيحية.

بدا «ك» مهماً، فجأة، لأسباب لا علاقة لها بحل مشكلة الترتيب والعلاقات المتداخلة بين الأناجيل. لقد حازت على اهتمام الدارسين باقةٌ من كتاباتٍ من فترات مبكرة من التاريخ المسيحي، مثل إنجيل توما وDidach، والآباء الرسوليين، والمؤلفات الغنوصية القبطية، وأعمال apocryphal الرسل، وإنجيل بطرس. كان «ك» وحده ـ في تلك الفترة وثيقة من زمن كتابة الأناجيل السردية، فقد فهم علماء كثيرون أهمية «ك»، وكانوا متلهفين لدراسته، لكن لسوء الحظ، كان ما يزال هناك عمل أساسي يجب القيام به. إذ كان يتوجب ترسيخ النص، ويتوجب إقرار الشكل الأدبي للنص، والتاريخ المبكر للنقل

والتأليف كان ما يزال بحاجة إلى تَقَصٍّ شامل. فالدراسات التي ساهمت في هذه المحاولات بدأت تظهر في مطلع سبعينات القرن العشرين، وازدهرت خلال الثمانينات، ويبدو أنها لم تتوقف.

إعادة بناء النص في حدوده الدنيا له أهمية حاسمة لدراسة «ك»، وبحاجة كذلك إلى بعض الإجماع حول تأليفه كشكل أدبي مُعترف به. فالدراسات النقدية النصية أنتجها سيغريد شولتز ١٩٧٢ وڤولفغانغ سكينك ١٩٨١ وأثاناسيوس بولاغ ١٩٨٢ وديتر زيلر Zeller عام ١٩٨٤. قدم شولتز نسخة للنصوص المتشابهة من إنجيلي لوقا ومتَّى مع ترجمة لها باللغة الألمانية. كان هذا تقدماً كبيراً لولا سمة واحدة. إذ ارتكب خطأً في تنظيم المادة من خلال الموضوع، وبذلك ألغى ترتيبي متَّى ولوقا. بعدئذ قُدِّمَتْ في لوائح إعادة بناء لـ «ك» نشرها إيفان هافنر ١٩٨٧. وفي عام ١٩٨٨ نشر جون كلوبنبورغ نسخة لمتشابهات «ك» باللغة اليونانية، في دراسة للأقوال اتبعت ترتيب لوقا، وقدمت وحدات مرقمة، وترجمة إنجليزية لها، ومجموعة آراء لعلماء حول قراءات متباينة، متشابهات عِبَر لكل قول حول أدب مسيحي مبكر.

كتاب المتشابهات الذي ألفه كلوبنبورغ هو ـ في الوقت الراهن ـ النص النموذجي المرجعي لدراسات «ك» في أمريكا. لكن نصاً موازياً ليس نصاً مُوَحَّداً بعد. فمن أجل إنتاج نص مُوَحَّد، ينبغي تمحيص جميع القراءات المتباينة بكل دقة، وتقديم قرارات تتعلق بالصياغة الأكثر أصالة بما ينسجم مع مجموعة معقدة من المبادئ التي تشمل معرفة مفصلة بالمفردات، والأساليب، والتفاصيل الآيديولوجية لكل من متَّى ولوقا كمؤلفين.

يقوم بهذه المهمة مشروع «ك» الدولي، ومشروع «ك» لكل أدب الكتاب المقدس تحت توجيه جيمس روبنسون في معهد / الفترة الرومانية المتأخرة والمسيحية / في مدينة كليرمونت. وسيكون نشر هذا المشروع إعادة بناء لدارسي النص اليوناني لـ «ك» الذي كان بمتناول أيدي متَّى ولوقا عندما كتبا

صارمة أملتها نظريات معاصرة في الكتابة والتأليف. حدث هذا في أمريكا خلال ستينات القرن العشرين عندما كانت الدراسات الدينية تبتعد عن نظريات البرامج اللاهوتية كي تستقر في الجامعة. لقد وجد علماء الكتاب المقدس أنفسهم في حوار مع كامل مجال العلوم الإنسانية وبدا مهماً لفهم العهد الجديد في سياق ظهور المسيحية كظاهرة ثقافية معقدة. فعند قراءة النصوص المسيحية المبكرة على خلفية تواريخ اجتماعية جدلية في العصر الروماني ـ الإغريقي، فإن هذه النصوص سرعان ما كانت تفقد غطاءها الشفاف ذا الأهمية اللاهوتية النموذجية، وكانت مسقطاً في المكان بحيث نُظر إليها كإنجازات أدبية صيغت في صخب تجريبية اجتماعية مثيرة.

عرض جديد للمقاربات النقدية لهذه النصوص خلق ـ بعد ذلك ـ حماسة خاصة في القرن العشرين. لقد تعلم علماء العهد الجديد أموراً تتعلق بالكلام والبلاغة، والمخيلة السردية، والعلاقة بين التأليف والسلطة. لقد اكتشفوا نماذج تشكيل اجتماعي، وبنى المجتمعات البشرية، وخلق عوالم رمزية، والسبل التي عملت فيها الأساطير والطقوس لصياغة هوية الجماعة، عندما كانوا يقرؤون الأدب الذي أنتجه المسيحيون الأوائل. هذا العلم الجديد جلب جماعات وحركات إلى مجال الرؤية، ولم يكن لهذه الجماعات والحركات مكان على الخارطة الأقدم للبدايات المسيحية.

بدا «ك» مهماً، فجأة، لأسباب لا علاقة لها بحل مشكلة الترتيب والعلاقات المتداخلة بين الأناجيل. لقد حازت على اهتمام الدارسين باقةٌ من كتاباتٍ من فترات مبكرة من التاريخ المسيحي، مثل إنجيل توما وDidach، والآباء الرسوليين، والمؤلفات الغنوصية القبطية، وأعمال apocryphal الرسل، وإنجيل بطرس. كان «ك» وحده ـ في تلك الفترة وثيقة من زمن كتابة الأناجيل السردية، فقد فهم علماء كثيرون أهمية «ك»، وكانوا متلهفين لدراسته، لكن لسوء الحظ، كان ما يزال هناك عمل أساسي يجب القيام به. إذ كان يتوجب ترسيخ النص، ويتوجب إقرار الشكل الأدبي للنص، والتاريخ المبكر للنقل

والتأليف كان ما يزال بحاجة إلى تَقَصٍّ شامل. فالدراسات التي ساهمت في هذه المحاولات بدأت تظهر في مطلع سبعينات القرن العشرين، وازدهرت خلال الثمانينات، ويبدو أنها لم تتوقف.

إعادة بناء النص في حدوده الدنيا له أهمية حاسمة لدراسة «ك»، وبحاجة كذلك إلى بعض الإجماع حول تأليفه كشكل أدبي مُعترف به. فالدراسات النقدية النصية أنتجها سيغريد شولتز ١٩٧٢ وڤولفغانغ سكينك ١٩٨١ وأثاناسيوس بولاغ ١٩٨٢ وديتر زيلر Zeller عام ١٩٨٤. قدم شولتز نسخة للنصوص المتشابهة من إنجيلي لوقا ومتَّى مع ترجمة لها باللغة الألمانية. كان هذا تقدماً كبيراً لولا سمة واحدة. إذ ارتكب خطأً في تنظيم المادة من خلال الموضوع، وبذلك ألغى ترتيبي متَّى ولوقا. بعدئذ قُدِّمَتْ في لوائح إعادة بناء لـ «ك» نشرها إيفان هافنر ١٩٨٧. وفي عام ١٩٨٨ نشر جون كلوبنبورغ نسخة لمتشابهات «ك» باللغة اليونانية، في دراسة للأقوال اتبعت ترتيب لوقا، وقدمت وحدات مرقمة، وترجمة إنجليزية لها، ومجموعة آراء لعلماء حول قراءات متباينة، متشابهات عِبَر لكل قول حول أدب مسيحي مبكر.

كتاب المتشابهات الذي ألفه كلوبنبورغ هو ـ في الوقت الراهن ـ النص النموذجي المرجعي لدراسات «ك» في أمريكا. لكن نصاً موازياً ليس نصاً مُوَحَّداً بعد. فمن أجل إنتاج نص مُوَحِّد، ينبغي تمحيص جميع القراءات المتباينة بكل دقة، وتقديم قرارات تتعلق بالصياغة الأكثر أصالة بما ينسجم مع مجموعة معقدة من المبادئ التي تشمل معرفة مفصلة بالمفردات، والأساليب، والتفاصيل الآيديولوجية لكل من متَّى ولوقا كمؤلفين.

يقوم بهذه المهمة مشروع «ك» الدولي، ومشروع «ك» لكل أدب الكتاب المقدس تحت توجيه جيمس روبنسون في معهد / الفترة الرومانية المتأخرة والمسيحية / في مدينة كليرمونت. وسيكون نشر هذا المشروع إعادة بناء لدارسي النص اليوناني لـ «ك» الذي كان بمتناول أيدي متَّى ولوقا عندما كتبا

إنجيليهما. فعندما يظهر هذا النص النقدي، ستنتهي قصة استعادة «ك» من طبقات تاريخ السياق الذي دفنه لمدة طويلة.

فنص موحد لـ «ك» قريب جداً إلى السطح، ومتصالح مع محتواه وتأليفه أمر ممكن أكثر من ذي قبل. لقد أنتجت الحماسة لـ «ك» عدداً كبيراً من الدراسات الجديدة تقر بسيادته واستقلاله، وترتكز على مساهمته المتميزة في معرفتنا بالتاريخ المسيحي المبكر. فالعلماء قادرون أن يحددوا جنسه الأدبي، وأن يشرحوا محتواه، وأن يرسموا تاريخ تأليفه. وسيهيئ ملخص موجز لهذه الدراسات المسرح لترجمة «ك» من قبلي أنا. وبذلك تكون الشذرات لنص مفقود قد جُمعت أخيراً.

٢ ـ حكمة غير مألوفة

عندما تجرأ هارناك على نشر أقوال يسوع في عام ١٩٠٧، فإنه كان يريد أن تُقرأ تعاليم يسوع دون الرجوع إلى الأناجيل السردية. بضربة واحدة فكر في استئصال مشكلة المعجزة والأسطورة، وأن يمكّن قراءه من التركيز على ما فهم اللاهوتيون الليبراليون على أنه جوهر المسيحية. فوفقاً لليبراليين من القرن التاسع عشر كانت عبقرية يسوع تكمن في كونه مُعلماً مرموقاً وذا أخلاقية عالية إنسانية غير محددة زمنياً. ومن ثم فقد رأى هارناك أن هذه التعاليم يجب أن تضع المعيار لعالم متحضر. لقد عظّم المسيحيون الليبراليون يسوع لتعاليمه، وعدّوا أنفسهم محظوظين أن يبرزوا في نهاية تاريخ تنوير مشهود له.

لا بد أن خطة هارناك بدت جيدة في حينها لدى عدد كبير من المسيحيين والعلماء، لأنها استندت إلى تلقين طويل من العقلية المسيحية التي ازدهرت خلال أواخر القرن التاسع عشر. كان يتم تخيل الجنس البشري ـ في تلك الأثناء ـ وفقاً لنموذج تطور تربوي، فعصور من خرافة وثنية، ودين معتقدي قد انتهت أمام عصر العقل. أما بالنسبة للبروتستانت فكانوا يرون أن العقل والإيمان قد نشآ في الأخلاق العليا للمسيحية، وعدوا أنفسهم معلمين يتألقون وسط عالم غير متنور، لكنه عالم قابل للتعليم. وبما أن يسوع قد أدخل هذه الأخلاقية إلى داخل العالم على أنها المثل الإنساني الأعلى، فإنه لم يكن بالإمكان أن يكون الشخصية الإلهية والمأساة التي تصورها الأناجيل. لذلك فإن الترويج الجريء الذي قام به هارناك لتعاليم يسوع بمعزل عن الأناجيل

الجزء الثاني

متن الإنجيل المفقود



٥ ـ كتاب «ك»

يُقدّم هذا الفصل متن الإنجيل المفقود، وتستند الترجمة الإنجليزية إلى النصوص اليونانية في إنجيلي متّى ولوقا المتوفرة في كتاب /أوجه التشابه في «ك»/ لمؤلفه جون كلوبنبورغ ١٩٨٨. وبغية الوصول إلى متن يوناني موحد، فقد قمت بإجراء استشارات حول إعادة بناء المتن الأصلي، إضافة إلى مشروع «ك» في كليرمونت. لقد هدفتُ إلى ترجمة جديدة، محاولاً الوصول إلى المعنى الأصلي في لغة الحياة اليومية لعصرنا نحن، كي أتجنب الحلقة المألوفة التي اكتسبها الكثير من هذه الأقوال من سياقها الإنجيلي.

أقدم في هذا الفصل نسختين للإنجيل المفقود: «الكتاب الأصلي لـ (ك)» و«الكتاب الكامل (ك)». الكتاب الأصلي مكون من مادة «ك١» فقط. بينما يدمج الكتاب الكامل «ك» المستويات الثلاث كلها في مادة «ك». في النسخة الكاملة، قدمتُ عناوين لأقسام رئيسية من النص، وكذلك لأجزاء أصغر منها. تحمل هذه الأجزاء الأصغر رمز «ك س»، وقمت بترقيمها تسهيلاً للرجوع إليها. لا يحمل الترقيم أية علاقة بالفصل الإنجيلي والآية، وهو مختلف قليلاً عن التقسيمات التي قام بها كلوبنبورغ على المتن. وبالنسبة للمهتمين في موضعة مادة «ك» في الإنجيل، أو بمقارنة إعادة البناء التي قمت بها للمتن مع ما قام به كلوبنبورغ من تقسيم فقد وضعت مُخططاً لما يقابل هذه التقسيمات في الملحق (ب).

كما توضح قصة «ك» في الجزء الثالث، ستتم الإشارة باستمرار إلى

الطبقات الثلاث من تاريخ تأليف «ك»، وهذه الطبقات ستكون مميزة في المتن بالإشارات الطباعية التالية:

مادة «ك١»، أقدم طبقة في المجموعة منضدة بأحرف غامقة.

مادة «ك٢»، الطبقة الثانية، معها تصميم تأليفي منضدة بأحرف أخف لوناً.

مادة «ك٣»، الإضافات اللاحقة للنص منضدة بحروف مائلة.

ضمن النص هناك الإشارات التالية:

‹ › تخمين الدارسين حيث مادة المتن لم تعد موجودة.

[ ] تنويه من المترجم إلى القارئ.

النصيحة التي أقدمها هي قراءة الكتاب الأصلي لـ «ك» قبل المضي لمناقشة مادة «ك١» في الفصل السادس. عندئذ، سيكون من المفيد قراءة مادة «ك٢» فقط في الكتاب الكامل مرة ثانية كي نحس بنكهته المميزة. مادة «ك٢» سوف تُنَاقَش في الفصلين السابع والثامن. يجب قراءة متن الكتاب الكامل من بدايته حتى نهايته دون أن نعير اهتماماً لتحولات في المزاج عندما تَرِد، وأن ندون ملاحظات حول التصميم كله. أما الشكل النهائي للمتن فسوف نناقشه في الفصل التاسع.

الكتاب الأصلي «ك»

‹هذه هي تعاليم يسوع›.

‹لدى رؤية الجموع، قال لتلاميذه›.

«طوبى للمساكين، لأن لهم ملكوت السماوات.

طوبى للجياع، سوف يشبعون.

طوبى للحزانى، إنهم سوف يضحكون.»

«أنا أقول لكم أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم.

من لطمك على خدك، فحول له الآخر أيضاً، ومن يمسك ثوبك فاترك له الرداء أيضاً.

من سألك فأعطه. ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده.

فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم.

لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأي أجرٍ لكم؟ وإن سلمتم على إخوتكم فقط فأي فضل تصنعون؟ ألا يفعل كل امرئ ذلك؟ إن تقرضوا من تتوقعون منهم السداد فأي أجرٍ لكم؟ حتى الخطاة يقرضون أمثالهم لأنهم يتوقعون السداد.

بدلاً من ذلك، أحبوا أعداءكم، افعلوا الخير، وأقرضوا دون أن تتوقعوا شيئاً مقابل ذلك. جزاؤكم سيكون كبيراً وستكونون أبناء الله.

فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين».

«كونوا رحيمين مثل أبيكم.

بالكيل الذي به تكيلون يُكال لكم».

«هل يستطيع أعمى أن يقود أعمى؟ ألن يسقطا كلاهما في حفرة؟

ليس التلميذ أفضل من المعلم. يكفي التلميذ أن يكون كمعلمه».

«ولماذا تنظر القذى الذي في عين أخيك. وأما الخشبة التي في عينك فلا تفطن لها. أم كيف تقول لأخيك دعني أخرج القذى من عينك. يا مرائي أخرج أولاً الخشبة من عينك. وحينئذ تبصر جيداً أن تخرج القذى من عين أخيك.»

«شجرة جيدة لا تحمل أثماراً رديّة، وشجرة رديّة لا تحمل أثماراً جيدة. هل يجتنون من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً.

الإنسان الصالح من الكنز الصالح في القلب يخرج الصالحات. والإنسان الشرير من الكنز الشرير يخرج الشرور.

لأن القلب يتكلم من قلب ممتلئ.»

«لماذا تنادونني يا معلم ولا تفعلون ما أقوله لكم؟

فكل من يسمع أقوالي هذه ويعمل بها أشبه برجل بنى بيته على الصخر. فنزل المطر وجاءت الأنهار ووقعت على ذلك البيت فلم يسقط لأنه كان مؤسساً على الصخر.

لكن كل من يسمع أقوالي ولا يعمل بها أشبه برجل بنى بيته على الرمل فنزل المطر وجاءت الأنهار وصدمت ذلك البيت فسقط، وكان سقوطه عظيماً.»

عندما قال شخص له «سأتبعك أينما تمضي»، قال يسوع «للثعالب أوجرة، ولطيور السماء أوكار، أما ابن الإنسان فليس له أن يسند رأسه».

عندما قال له آخر «ائذن لي أن أمضي أولاً وأدفن أبي» فقال يسوع «دع الموتى يدفنوا موتاهم»

وقال له آخر «سأتبعك يا سيدي، لكن أولاً دعني أودع أسرتي. فقال له يسوع: «من يضع يده على المحراث وينظر خلفه، لا يستحق ملكوت الله».

قال «الحصاد كثير ولكن الفَعَلَة قليلون. فاطلبوا من رب الحصاد أن يرسل فعلة إلى حصاده».

ها أنا ذا أرسلكم كغنم في وسط الذئاب.

لا تقتنوا ذهباً، ولا مزوداً، أو أحذية، أو عصا، ولا تلقوا التحية لأي امرئ على الطريق.

وحين تدخلون بيتاً قولوا «السلام على هذا البيت». فإن كان البيت مستحقاً فليأت سلامكم عليه. ولكن إن لم يكن مستحقاً فليرجع سلامكم إليكم. وابقوا في المنزل، تأكلون وتشربون ما يقدم لكم، إن العامل يستحق أجره.

لا تمضوا من بيت إلى بيت.

وإذا دخلتم مدينة واستقبلوكم، فكلوا مما يقدمونه لكم.

اهتموا بالمرضى وقولوا لهم ملكوت الله آت قريباً منكم.

لكن إذا دخلتم مدينة ولم يستقبلكم أهلها، فعندما تغادرون انفضوا غبار أحذيتكم وقولوا: تأكدوا أن ملكوت الله آت إليكم.

عندما تصلون قولوا:

أبانا ليتقدس أسمك

ليأت ملكوتك

أعطنا كل يوم خبزنا

واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا

ولاتدخلنا في تجربة».

اسألوا تعطوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم. من يسأل يأخذ، ومن يطلب يجد، ومن يقرع يفتح له.

اسألوا تعطوا. اطلبوا تجدوا. اقرعوا يفتح لكم

أم أي إنسان معكم إذا سأله ابنه خبزاً يعطيه حجراً. وإن سأله سمكة يعطيه حية.

إذا لم تكن صالحاً، تعلّم كيف تقدم أشياء صالحة إلى أطفالك، كم سيعطي الآب في السماء أشياء صالحة إلى من يطلبون».

«ليس مكتوم لن يستعلن، ولا خفي لن يعرف.

الذي أقوله لكم في الظلمة قولوه في النور. والذي تسمعونه في الأذن نادوا به على السطوح».

«ــ ولا تخافوا من الذين يقتلون الجسد، ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها.

ــ أليس عصفوران يباعان بفلسين؟ وواحد منهما لا يسقط على الأرض دون علم الله. فحتى شعور رؤسكم جميعها محصاة. فلا تخافوا. أنتم أفضل من عصافير كثيرة».

«ــ شخص من الجمع قال له: «يامعلم» اطلب من أخي أن نقتسم الميراث. فأجابه يسوع: «سيدي من عينني قاضياً لك أو محامياً عنك؟»».

ــ أخبره عبرة مفادها أن رجلاً غنياً حصد محصولاً وفيراً من أرضه فقال لنفسه ماذا سأفعل؟ ليس عندي مكان أخزن فيه محصولي. سأهدم مخازني لأبني مخازن أكبر، وأضع فيها حبوبي ومتاعي. وسأقول لروحي، أيتها الروح لديك متاع كاف لعدة سنوات. هوني عليك، كلي واشربي وكوني مسرورة. لكن الله قال له: أيها الأحمق هذه الليلة عليك أن تعيد روحك والأشياء التي أنتجتها. فلمن ستكون؟

هذا يحدث لمن يكنز لنفسه فهو ــ في نظر الله ــ ليس غنياً.

«ــ أقول لكم لا تهتموا قائلين ماذا نأكل أو نلبس. أليست الحياة أكثر من الطعام، والجسد أكثر من اللباس.

ــ انظروا إلى الطيور. إنها لا تزرع ولا تحصد، ولا تجمع إلى مخازن. والله يقوتها. ألستم بالحري أفضل منها. من منكم يستطيع أن يضيف يوماً واحداً إلى حياته بالقلق؟

ــ ولماذا تهتمون باللباس. تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو. لا تتعب ولا تغزل. ولكن ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها. فإذا كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم ويطرح غداً في التنور يلبسه الله هكذا، أفليس بالحري جداً أن يلبسكم أنتم يا قليلي الإيمان.

ــ لذلك لا تهتموا قائلين ماذا نأكل وماذا نشرب، أو ماذا نلبس؟ لأن

كل واحد في العالم يفعل ذلك، وأباكم يعلم أنكم تحتاجون هذه الأشياء.

ـ تأكدوا من حكم الله عليكم، وكل هذه الأشياء ستكون لكم. بيعوا متاعكم وتصدقوا بثمنها. اكنزوا كنوزاً في حساب سماوي حيث لا يفسد سوس ولا صدأ أو حيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون. لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضاً».

ـ قال «ما هو ملكوت السموات؟ بماذا أقارنها؟ يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها في حقله، ونمت وصارت شجرة حتى طيور السماء تأتي وتتآوى في أغصانها».

ـ وقال أيضاً: «يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع.

ـ من يرفع نفسه يتضع، ومن يضع نفسه يرتفع.

ـ أقام(*) رجل وليمة دعا إليها كثيرين. وعندما حان وقت الوليمة أرسل خادمه ليقول للمدعوين تفضلوا كل شئ جاهز. لكنهم جميعاً بدؤوا يلتمسون أعذاراً. قال الأول له: لقد اشتريت حقلاً ويجب أن أذهب وأراه. أرجوك اعذرني. وقال آخر لقد اشتريت زوجاً من الثيران للتو، وأريد أن أتفقدهما. أرجوك اعذرني. وقال آخر: لقد تزوجت امرأة للتو، لذلك لا أستطيع الذهاب. عاد الخادم وروى كل هذا إلى سيده. بعدئذ قال المضيف غاضباً: امض إلى شوارع البلدة واحضر كل من تجده. فخرج الخادم في الشوارع وجمع من رآه، وبذلك امتلأ المنزل بالضيوف.

ـ من لا يكره أباه وأمه لن يكون قادراً أن يتعلم مني. ومن لا يكره ولده وابنته ليس من أتباعي.

(*) هذه القصة مختلفة عن النص الحرفي في الإنجيل. انظر الإصحاح متى. المترجم.

ــ ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني.

ــ من وجد حياته يضيعها. ومن أضاع حياته من أجلي يجدها.

ــ الملح جيد، لكن إذا فقد طعمه المالح، فلماذا يخزن؟ إنه لا يصلح حتى للأرض، والناس يرمونه على المزبلة.

كتاب «ك» الكامل

مقدمة

ك س ١ ـ العنوان

‹هذه هي تعاليم يسوع›.

ك س ٢ ـ مكان التعاليم

[إضافة «ك٢» لمادة يوحنا حذفت المقدمة الأصلية ليسوع وتعاليمه. انظر ك.س ٧].

وعظ يوحنا.

ك س ٣ ـ ظهور يوحنا

‹ظهر يوحنا في البرية على طول نهر الأردن›.

ك س ٤ ـ يوحنا يخاطب الناس

قال للناس الآتين ليغطسوا [في النهر] «يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي؟ تغيرون سبلكم إن غيرتكم آراؤكم. ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أباً. لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم. والآن قد وضعت الفأس على أصل الشجر. فكل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار.